

## مليون عصفور يسكنني

### نضال الإيراني\*

السماء وآفاقها اللامتناهية. أنجح أحياناً في تدجين عصفيري العنيدة الصعبة المراس، حتى لا تلهفها ألسنة ذلك الجحيم الدائم الاستعار، كما تلهف النار الفراش الراقصة حولها، وأعدّها أن أحقق أحلامها المشروعة في الانطلاق بفضائها الواسع الرحيب، عبر مراحل لا دفعة واحدة. غير أن مجهودي العظيم، الذي لا يعلم قدر عظمته غير عصفيري وأنا، يواجه بأفواه بنادق واقعي الصدئة المصوبة صوبها، تصب عليها وابل نيرانها العمياء، غير مفرقة بين صغارها وكبارها، ولا معترفة بعامل الزمن والعمر الافتراضي الذي يُفترض أن تُمنح عصفيري كامل إرادتها وحريتها فيه. ولكم هو مؤلم أن أجدها تتساقط تباعاً ليستمر سقوطي مع كل واحد منها، مضرجة بدموعها ودمي! فأنا لا أحتمل أبداً أن أرى عصفوراً من ملايين عصفيري الجميلة يهوي ويسقط، لا ليموت ويستريح وأستريح

تجنح بي عصفيري الملونة بألوان قوس قزح، عالياً في عنان السماء. يتربص بها واقعي، الذي يُنصب نفسه - عنوة - حكماً بيننا ولا يرضيه انطلاقها أو حتى مجرد امتلاكها لأجنحة تمكنها من الخلاص من قبضته الخائفة، هادفاً إلى اقتناصها عصفوراً تلو عصفور. أحاول قدر طاقتي التفاهم مع عصفيري على أن يتم تحليقها بهدوء بعيداً عن إثارة أي ضوضاء قد تستفز عفونة واقعي، التي يتفوق حولها في أعماق سقر ومنذ غابر العصور، إلى درجة ألفت عندها التنفس في اللاهواء، وألفت في الوقت نفسه التمويه عن عفونته، بالتربص بأسراب عصفيري النافرة، النازعة دوماً صوب المساحات الخضراء وحدائق الجمال الوردية المشرعة على رحاب الحب والعدل والسلام، في محاولة منه الانتصار لألسنة لهبه المستعرة، ولهف فرص الحياة المتجددة أمام عصفيري، والممتدة بامتداد صفحة

\* قصة من اليمن.

إلى عالم الإنسان وتمتعي بكامل صحتي وعافيتي،  
وحق عصافيري في الحياة الحرة الكريمة والتغريد  
في الفضاء الرحب الملون والجميل!!

حقيقة لا أعلم حتى الآن إجابة لتساؤلي السابق،  
وإن كانت بوادر الإجابة عن تساؤلهم تلمع في  
مخيلتي؛ فمن أين لجسد سلبت منه حواسه ومنعت  
حقها الطبيعي في الأخذ والعطاء،

وحيل بينه وبين عقله بسياج مكهرب  
منيح، أن ينمو ويزدهر؟! فمنذ  
أن وعيت وأنا أجدني مسلوحة  
الحواس والعقل، شُيدت على  
مساحتها حواس أخرى عاطلة  
وأفكار عقيمة لا تنتمي لأي  
من دمي أو دم عصافيري. وكلما

سلبت مني حواسي وعقلي هزل  
جسدي، حتى وقف نموه تماماً، ليصبح  
مثل: "حنظلة" ناجي العلي، مضرِباً عن النمو  
والازدهار حتى يستعيد حريته واستقلاله. وإن  
كانت عصافيري -في المقابل- تزداد نمواً وتنوعاً  
-رغم توقف نمو جسدي- حتى أوشتكت على أن  
تجنح بي وأجنح معها في رحلة مؤبدة خالدة،  
نرسل معاً في عالمنا الحر الطليق، الذي سنمتلك  
فيه حريتنا في التنفس والاختيار، بعد أن تحررنا  
من متاهة: واقعي، جسدي، حواسي، عصافيري...  
تلك المعادلة الصعبة غير القابلة للحل في المستقبل  
المنظور والبعيد على حد سواء.



معه وله، بل ليسجن مكسور الجناح والساق في  
قفص من جحيم إلى الأبد، يظل يستمد دواء  
جروحه من نخاعي ودمي، عبر تغاريدته الحزينة  
التي يرسلها من خلف القضبان اللاهبة، متوسلة  
للنجدة والغوث. فعصافيري لم تخلق لتموت، لأنها  
الحياة عينها. وهنا تكمن مشكلتي معها ومع واقعي  
المتحجر العقلية، الذي يقع دائماً -رغم

التنازلات الكثيرة- في مواجهة  
عيفة معها، إلى درجة أفقد عندها  
توازني وقدرتي على التوفيق بين  
النقيضين؛ بسبب استمرار تجاهله  
لحشرجات عصافيري المخنوقة  
وتوسلاتها المستجدية لحقها المشروع  
في الوجود والحياة والتنفس بسلام.

يتساءل كثيرون عن سبب ظهور ملامح  
النحول المرسومة على جسدي، التي  
تظهرني كما لو كنت طفلة صغيرة. بدوري  
أستغرب سؤالهم كثيراً، خاصة أولئك  
الذين يدعون معرفتهم بي، لأنهم لو  
كانوا يعرفونني حقاً، لما استغربوا  
هزال جسدي. لا أجيبهم، وأتجاهل

سؤالهم غير المشروع أصلاً، لكنني في الوقت  
نفسه أسأل نفسي: هل هم بلا أرواح حاملة، حتى  
يسقطون عليّ ذلك ويروني محض جسد؟! أم  
أن الأناية والأثرة استحكمت بنفوسهم الجذباء  
والمعدمة إلى درجة ينكرون عندها حقي في الانتماء